من لطائف عدول الفعل الماضي في القرآن الكريم

د. علي عبد السلام بالنور•

المقدمة:

الحمد لله حمداً يفتح لنا به أبواب الفهم لأسرار الكلام، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المجتبى من خلقه لتبليغ رسالته وبيانها، صلاةً وسلاماً ننال بفضلهما أعلى مراتب الفهم لمعاني الكتاب، ولطائفه، وأسراره.

أمَّا بعد، فالجملة في العربية متركبة– عادة– وفق قواعد ارتضتها العرب ودرجت على استعمالها، فصارت معتادة مألوفة لا تخرج عنها إلاَّ لغرض، أمَّا الجملة القرآنية المنزَّلة من عند الله – ﷻ – التي أعجزت الثقلين فصاحةً ، ونظمًا، وبيانًا فلسانها عربي مبين، وقد يعتريها أحيانًا نقض للعادة، وخروج عن المعتاد والمألوف لقواعد اللغة، وأسلوب العرب في كلامهم، ولكن بقرينة دالة، وسياق متضمن لهذا الخروج، فيصبح للتركيب معنى آخر، وهو الأساس؛ تحقيقًا لوظيفة بلاغية، ولطيفة تؤكد الإعجاز القرآني فيه لا تفهم إلاَّ من السياق، والمقام، وقرائن الأحوال.

ولعل وصف البلاغيين للكلام أنَّه ليس على مقتضى الظاهر هو الأساس في نظرية الخروج عن مقتضى الظاهر، قال السكاكي:« واعلم أنَّ الطلب كثيرًا ما يخرج لا على مقتضى الظاهر، وكذلك الخبر، فيذكر أحدهما

• – كلية الآداب/ الخمس.

في موضع الآخر، ولا يصار على ذلك إلاَّ لتوخي نكت قلما يتفطن لها من لا يرجع على دربة في نوعنا هذا»[1].

ولما كانت معرفة خواص التراكيب، وأسرار الأساليب تستدعي العقل، والفكر، والذوق، والدربة، وتراعي المقام والسياق لاسيما الخروج عن مقتضى الظاهر، أو العدول، أو الانزياح الذي يثير التساؤل، صار البحث فيه ضرورة؛ للوقوف على لطائفه الفنيَّة ، وأسراره البلاغية.

وأسلوب الخروج عن مقتضى الظاهر للفعل الماضي في القرآن الكريم، ليس تفننًا في القول من غير سرٍّ ولطيفة، وإنَّما هو أسلوب يحمل لطائف وأسراراً في كلّ وجه يتمثل فيه، وفي كلِّ صيغة يصاغ عليها.

و للبحث في هذا الموضوع دافعان، الأول: محاولة إبراز أثر مخالفة استعمال الفعل الماضي في الدرس البلاغي، والوقوف على بعض أسرار ولطائف هذا التعبير في القرآن الكريم.

الثاني: محاولة جمع و إبراز بعض لطائف العلماء ونفائسهم وتعليقاتهم– في هذا الموضوع– من كتب التفسير، والبلاغة، والاستفادة منها، والإفادة بها، فكان البحث بعنوان: **من لطائف عدول الفعل الماضي في القرآن الكريم.**

وتطلب منهجه أن يكون وصفيًا استقرائيًا، يقوم على تتبع استعمال الفعل الماضي ودلالاته وفق المقام والسياق في فلك القرينة الحالية أو المعنوية، مستمدًا مادته من مصادر ومراجع متنوعة منها: كتب النحو، والصرف، والبلاغة، وغريب القرآن، ومنها كتب تفسير القرآن وبلاغته وبيانه.

(1) مفتاح العلوم، السكاكي: 323.

وفي هامش البحث راعيت اختصار توثيق البيانات المتعلقة بالمصادر والمراجع، تاركًا تفاصيلها في فِهرس المصادر والمراجع. واقتضى البحث بعد جمعي مادته أن يقسَّم على مقدمة، وموضوع، وخاتمة.

أمَّا المقدمة فأشرت فيها لدلالة الكلمة في القرآن الكريم، وما فيها لنقض العادة من كلام العرب، وذلك بوجود قرينة دالة، وسياق مسوغ لهذا النقض، وهذا الخروج، كما تضمنت الدوافع التي كانت وراء اختيار هذا الموضوع، واسم عنوانه، ومنهجه، وتقسيماته التي كان عليها.

أمَّا عرض الموضوع فبيَّنْتُ فيه وجوه التعبير بالفعل الماضي لإفادته الحال، والاستمرار، وَلِمَا يتحقق في المستقبل القريب، كما بينتُ صورًا للتعبير بالفعل الماضي عن أحوال يوم القيامة.

أمَّا الخاتمة فحوت أهم النتائج التي أفضى إليها البحث.

عرض الموضوع:

الأصل في استعمال الأسلوب الالتزام بالأصل سواء من حيث المبنى، أو المعنى « ولكن العرب درجت على تصحيح حالات معينة من العدول عن الأصل، وأعطتها من الاعتداد بها ما رقي بها إلى مستوى الصواب المعتمد على قاعدة»[1].

والعدول لغة: « العدْل أن تعدل الشيء عن وجهه...وعدل عنه يعدل عدولاً إذا مال، كأنَّه يميل عن الواحد إلى الآخر... ويعدل الفحل عن الإبل إذا ترك الضراب»[2].

أما العدول اصطلاحا: فقد عرَّفه الراغب بقوله: « أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله»[3]، وعرَّفه أحد الباحثين المحدثين أنَّه « الانحراف عن القاعدة، والخروج على قواعد النظم والتركيب»[4].أما اللطيفة فهي« كل إشارة دقيقة المعنى تلوح للفهم لا تسعها العبارة»[5].

أمَّا الفعل فهو ما دلَّ على اقتران حدث بزمان، ومن خصائصه صحة دخول قد، وحرفي الاستقبال، والجوازم، ولحوق المتصل البارز من الضمائر، وتاء التأنيث الساكنة، نحو قولك: قد فعل يفعل وسيفعل وسوف يفعل، ولم يفعل، وفعلتَ، ويفعلن، وافعلي، وفعلتْ.

---

(1) البيان في روائع القرآن، تمام حسان: 10.

(2) لسان العرب، لابن منظور (عدل).

(3) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تح سيد كيلاني :156.

(4) صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته،: 154-155.

(5) التعريفات، الجرجاني، تح: إبراهيم الأبياري:246.

أما الماضي منه فهو الدال على اقتران حدث بزمان قبل زمانك... أما الفعل المضارع فهو ما يعتقب في صدره الهمزة، والنون، والتاء، والياء... وتسمى الزوائد الأربع، ويشترك فيه الحاضر والمستقبل[1].

والفعل في الجملة الفعلية هو الضابط في الكلام المخالف لمقتضى الحال، وقرينته حالية، غير أنَّ مخالفة مقتضى الظاهر في الأفعال تأتي على وجهين:

الأول: مخالفة في استعمال الفعل من حيث الصياغة؛ لأنّ للفعل صيغ ثلاث: الماضي، والمضارع، والأمر، ولصيغة المستقبل جانبان هما الأمر، والمضارع، وللحال صيغة المضارع المشتركة بينه وبين الاستقبال.

الثاني: أنَّ للفعل الماضي صيغة واحدة، غير أنَّ استعمال التعبير عن المستقبل، أو الماضي لم يقف عند الصيغ المحددة لكل فعل كما تتطلب القاعدة النحوية، بل قد يأتي الفعل الماضي دالاً على الزمن المستقبل، وقد يأتي فعل المستقبل دالاً على الماضي، فلا يعني العدول الإضراب عن الأصل، بل يعني أصل ما يدل عليه استعمال صيغة زمانية موضع أخرى[2]، ولكل استعمال لطيفة وسرّ، تظهر في إشارة دقيقة المعنى تلوح للمتأمل، قد لا تسعها العبارة، وللعدول في الفعل الماضي لطائف منها:

اللطيفة الأولى: التعبير بالماضي عن الحال.

أثار كثرة التعبير بصيغة الفعل الماضي عن الأزمنة الأخرى في القرآن الكريم، ولاسيما في أمور الغيبيات اهتمام الباحثين؛ لأنَّ التعبير به صادر ممَّن

(1) ينظر: المفصل في صنعة الإعراب، الزمخشري 1: 319.

(2) ينظر: البلاغة العربية، عبد الرحمن الميداني :510.

لا شك في صدق خبره، وأنَّ ما يخبر به متحقق الوقوع؛ لأنَّ المستقبل في علمه- ﷻ - بمنزلة الماضي في تحقق وقوعه، قال ابن الأثير عن فائدته في الاستعمال: « فائدته أنَّ الفعل الماضي إذا أُخْبِرَ به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد، كان ذلك أبلغ، وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده؛ لأنَّ الفعل الماضي يعطي من المعنى أنَّه قد كان ووجد، وإنَّما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها»[1].

وتعرض النحاة لدلالة الفعل المضارع. أهي على الحال، أو الاستقبال؟[2].أمَّا عدول التعبير بالفعل الماضي إلى المضارع لإفادته الحال، أو الاستقبال فمرتبط بالسياق، والقرائن اللفظية، والمعنوية فهي المحددة لدلالته غير أنَّ دلالة الحال فيه متحققة أكثر من الاستقبال؛ لأنَّ الأمر كلما كان قريبًا كان أحق بالوقوع والتحقق من البعيد.

وَلَمَّا كانت صيغة المضارع خالية من التأكيد التي في الماضي استعمل الفعل الماضي بدل الفعل المضارع الدال على الحال؛ لإفادة تحقق الوقوع، والحال في هذا المقام هو:« ما قارن التعبير عنه وجود جزء من معناه، نحو: زيد يكتب فقارنَ وجود لفظه لوجود بعض الكتابة لا كلها، وعبّر بلفظ يكتب لاتصال الكتابة بعضها ببعض »[3].

والإخبار في القرآن الكريم عن الأحداث المستقبلة صادر عمَّن لا يتخلف خبره وهو الله – ﷻ- لأنَّها واقعة لا محالة، ولذلك عبَّر عنها في كتابه العزيز

(1) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر 2: 15.

(2) ينظر: شرح التسهيل، جمال الدين محمد بن مالك: 1 :18.

(3) التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، لأبي حيان الأندلسي، تح: حسن هنداوي: 1: 80.

بالفعل الماضي، وبذلك يكون زمن الإخبار عنها هو زمن أحداثها، أو جزء منه، قال السيوطي:« والأفعال الماضية مشتركة بين الخبر والدعاء، والمضارع كذلك هو مشترك بين الحال والاستقبال»[1] .

واستعمل القرآن هذه الصيغة لِمَا عُرِف عن العرب من استعمالها فيما بينهم من خطاب، قال تعالى:﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ المائدة: ٩. وقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴾ التوبة: ٦٨.

قال ابن عاشور عن استخدام الفعل الماضي في الآيتين:« وفعل المضي في قوله:(وعد الله)، إمَّا لأنَّه إخبار عن وَعْدٍ تَقَدَّمَ في آي القرآن قصد من الإخبار به التذكير به لتحقيقه؛ وإمَّا أن يكون قد صيغ هذا الوعد بلفظ المضي على طريقة صيغ العقود مثل: بعتُ وتصدقتُ؛ لتكون تلك الصيغة معهودة في الالتزام الذي لا يتخلف»[2].

والمستفاد من قول ابن عاشور أَنَّ للعدول في الآيتين تفسيرين، الأول: استعمل الفعل الماضي باعتبار وعد سابق في القرآن(للمنافقين وللمؤمنين)، وأَنَّ سورة التوبة موضع الشاهد آخر ما نزل من السور الطوال دفعة واحدة[3]. والثاني: أَنَّ فيه من التنبيه على أَنَّ وعد الله ووعيده متحققان لا يتخلفان.

(1) المزهر في علوم اللغة وأنواعها 1 : 297.

(2) تفسير التحرير والتنوير،10: 255.

(3) ينظر: المصدر نفسه 10: 95.

أَمَّا قوله تعالى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ المائدة: ٩٥. فقد جاء في تفسير الآية أَنَّ الله يعفو عن الذين قتلوا الصيد محرمين قبل نزول التحريم، أمَّا « من عاد إلى مثل هذا فينتقم الله منه»[1].

والعفو مُعَبَّرٌ عنه بالفعل(عفا) مع أنَّ العفو لم يقع قبل أَنْ تبلغهم الآية، قال ابن عاشور في تفسيره:« وأعقب الله التهديد بما عود به المسلمين من الرأفة...أي: عفا عمَّا قتلتم من الصيد قبل هذا البيان ومن عاد إلى قتل الصيد وهو مُحْرِمٌ فالله ينتقم منه»[2]. ولكن الإخبار عن العفو حال نزول الآية يقتضي مقام التعبير بالفعل المضارع غير أَنَّه عدل به إلى الماضي لتحقق العفو وتوكيده، ولو عبّر بالمضارع الدال عن الحال لفات فهم تأخير العفو، وهذا لا يتناسب ومقام الرحمة والرأفة من الله – ﷻ – والله أعلم.

وللتعبير بلفظ (الآن) في سياق صيغة الفعل الماضي دلالة للحال على الماضي في حال النطق به ، فهو مصوّغ وقرينة يدل على الحال، قال ابن مالك: « مسمى الآن الوقت الحاضر جميعه كوقت فعل الإنشاء حال النطق به»[3]، وقال عنها ابن السَّراج « فلما كانت تدل على ما يدل عليه المضارع استغني عن المضارع فيها»[4] . وقال السيوطي هي :« اسم الزمان الحاضر، وقد تستعمل في غيره مجازًا»[5]، ولا يكون التجوز إلاَّ في الظرف نفسه إذا دلَّ

(1) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي: 2: 144.

(2) تفسير التحرير والتنوير:7: 50.

(3) شرح التسهيل، 2: 218.

(4) الأصول في النحو، ابن السراج، تح: عبد الحسين الفتلي1: 83.

(5) معترك الأقران في إعجاز القرآن 2: 60.

الفعل على ماهيته الأصلية كما في قوله تعالى:﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ البقرة: ٧١.

فكان التجوز مُقَرِبًا لزمن المضي من الحال، حتى كأنَّه حال واقع، وفي هذا التعبير لطيفة وسرّ ، ففي وصف البقرة بيان كامل لم ينقصه شيءٌ في كونها (لا ذلول، ولا تسقي الحرث، مُسَلَّمة، لا شية فيها) ولكنهم أعرضوا عنها، وهذا ظاهر من قولهم:(أتتخذنا هزؤاً). كما كان قولهم:(بالحقّ) المقابل للباطل دليلاً على أنَّ في نفوسهم أمرًا لا يتلقى به النبي[1].

أمَّا في قوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ النساء: ١٨ . فلفظ **(الآن)** مع الفعل الماضي**(تُبْتُ)** في السياق قرينة تُعِينُ على إظهار الخروج من صيغة المضي إلى الحال؛ لإثبات التوكيد والتحقيق في الفعل.

فالظرف**(الآن)** إثبات لحالية الفعل(تُبْتُ)، والإخبار به حكاية للتوبة دون التوبة نفسها، وهذا دليل على عدم قَبولها عند الله، قال أبو السعود في تفسيره للآية:« وقولهم حينئذٍ إني تبت الآن، وَذِكْرُ الآن لمزيد تعيين الوقت، وإيثار (قال) على (تاب) لإسقاط ذلك عن درجة الاعتبار والتحاشي عن تسميته توبة»[2].

فصيغة الماضي تدل على فعل الفعل والعزم عليه، أمَّا صيغة المضارع فلا تناسب المقام؛ لأنَّها تفيد التراخي، وهذا لا يناسب التوبة التي تقتضي

(1) ينظر: البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان الأندلسي 1: 416.

(2) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم 2: 157.

المبادرة وعدم التسويف، ومع هذا الظرف يدل الفعل الماضي على الحال فيكون مجازًا عن المضارع مع احتمال أن يكون الفعل دالاً على المضي، كما جاء في قصة يوسف وإقرار النسوة، وامرأة العزيز عند سؤالهنَّ عن مراودة يوسف _ عليه السلام _ قال تعالى: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَاوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ يوسف: ٥١.

فمن جواب النسوة(حاشا لله ما علمنا عليه من سوء) يثبت أن الفعل الماضي على حقيقته، وأنَّ التجوز إلى المضارع واقع في الظرف (الآن حصحص الحقّ) مع قول امرأة العزيز. قال ابن عاشور في هذا المقام:« والتعبير بالماضي مع أنَّه لم يثبت إلاَّ من إقرارها الذي لم يُسْبَق؛ لأنَّه قريب الوقوع فهو لتقريب زمن الحال من المضي، ويجوز أن يكون المراد ثبوت الحقّ بقول النسوة، ما علمنا عليه من سوء، فيكون الماضي على حقيقته، وتقديم اسم الزمان للدلالة على الاختصاص، أي الآن لا قبله للدلالة على أن ما قبل ذلك الزمان كان زمنًا باطلًا، وهو زمن تهمة يوسف _ عليه السلام _ بالمراودة.

فالقصر قصر تعيين، إذ كان الملك لا يدري أي الوقتين وقت الصدق، أ هو وقت اعتراف النسوة بنزاهة يوسف _ عليه السلام _ أم هو وقت رمي امرأة العزيز إيَّاه بالمراودة؟ »[1].

ومن العدول في الفعل الماضي الأمثال القرآنية المستعملة للاعتبار، والاتعاظ، المتصدرة بصيغة الفعل الماضي **(ضَرَبَ)**، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ الزمر: ٢٧ .

(1) تفسير التحرير والتنوير 12: 291.

وقال عنها ابن عاشور:« وخصّت أمثال القرآن بالذكر من بين مزايا القرآن لأجل لفت بصائرهم للتدبر في ناحية عظيمة من نواحي إعجازه وهي بلاغة أمثاله، فإن بُلغاءهم كانوا يتنافسون في جودة الأمثال وإصابتها المحزّ»[1].

ولكون الأمثال مستهلة بالفعل **(ضَرَبَ)** فهي أدخلُ في تمكين معنى المثل، وأبقى لأثره في النفس؛ لأن المعنى العام للضرب إيقاع شيء على شيء، قال الراغب:« المضرب إيقاع شيء على شيء... وضَرْبُ المثل هو من ضرب الدراهم، وهو ذكر شيء وأثره يظهر في غيره»[2]، قال عنه أبو السعود:« مأخوذ من ضرب الخاتم بجامع التطبيق»[3].

ومن المفهومَين يتضح أن ضرب المثل في القرآن لا يخرج عن هذين المعنيين في كون جعل المثل معمولًا للضرب لإفادة تمكينه حتى يكون في هيأة لا تتغير، كما ضَرْب الدراهم، أو صبّ الخاتم.

واستهلت الآيات المتصدرة بالمثل بلفظ (ضرب) بصيغتي الخبر، والطلب، فأمَّا المستهلة بصيغة الخبر فكانت الأهم؛ لأهمية مقامها عن المستهلة بصيغة الطلب، قال ابن عاشور عنها:« وقد يتطلب وجه التفرقة بين ما صيغ بصيغة الخبر، وما صيغ بصيغة الطلب، فنفرق بين الصنفين، بأنَّ ما صيغ بصيغة الخبر كان في مقام أهم؛ لأنَّه إمَّا تمثيل لإبطال الإشراك، وإمَّا لوعيد

(1) تفسير التحرير والتنوير 23: 397.

(2) المفردات في غريب القرآن: 294

(3) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 1: 72

المشركين، وإمَّا لنحو ذلك خلافًا لما صيغ بصيغة الخبر فإنَّه كائن في مقام العِبرة والموعظة للمسلمين، أو أهل الكتاب»[1].

أما أبو السعود فقد أشار إلى استخدام الأمثال الواردة في الكتاب العزيز وإنْ كان في مضاربها، وفي عين إنشائها غير أَنَّ التعبير عنها بالضرب من باب استعمال المثل في مضربه[2]. وكأنَّ ضرب المثل بلفظ الفعل(ضَرَبَ) مساعد لفهم الدلالة. أكَّد هذا المعنى أبو السعود عندما قال:« ضرب المثل استعماله في مضربه وتطبيقه به لا صنعه وإنشاؤه في نفسه، وإلاَّ لكان إنشاء الأمثال السائرة في مدارها ضربًا لها دون استعمالها»[3].

والأمثال المستعملة بلفظ (ضَرَبَ) خبرها مفيد لمعنى إنشائها وقت الإخبار بها؛ فدلالة الماضي فيها على الحال، قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الزمر: ٢٩

قال ابن عاشور عن التعبير بالضرب في المثل:« ومجيء فعل(ضَرَبَ) بصيغة الماضي مع أن ضَرْبَ هذا المثل ما حصل إلاَّ في زمن نزول هذه الآية لتقريب زمن الحال من زمن الماضي لتفيد التشويق إلى علم هذا المثل فيحصل كالإخبار عن أمر حصل؛ لأنَّ النفوس أرغب في علمه»[4].

أمَّا(**كان**) الناقصة فلها دلالة خاصة في القرآن الكريم باعتبارها أحد الأفعال الماضية في أصل الوضع على المعنى غير أنَّها منسلخة عن الحدث،

(1) تفسير التحرير والتنوير23: 401.

(2) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم 1: 72.

(3) المصدر نفسه 1: 72.

(4) تفسير التحرير والتنوير، 23: 399.

والفعل حدث وزمن، وبهذا الانسلاخ صارت دلالتها على الزمن حسب السياق، وبهذا تكون كان الناقصة بمعنيين: « أحدهما ثبوت خبرها مقرونًا بالزمان الذي تدل عليه صيغة الفعل الناقص، إمَّا ماضيًا، أو حالاً، أو استقبالاً، وذهب بعضهم إلى أنَّ(كان) يدل على استمرار مضمون الخبر في جميع الزمن الماضي... والمعنى الثاني: أن يكون بمعنى (صار) وهو قليل بالنسبة إلى المعنى»[1]، قال تعالى: ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ العنكبوت: ٣٢.

قال ابن عاشور في تفسيره للآية:« فعل(كانت) مستعمل في معنى تكون، فعبَّر بصيغة الماضي تشبيهًا للفعل المحقق وقوعه بالفعل الذي مضى»[2].

ولـ(كان) دلالات متعددة منها« إخبار عن الحال فيما مضى من الدهر»[3]، وأنّها« للثبوت لا للمضي»[4]، وأنَّها« تفيد الحصول، والثبوت، والوجود»[5].

فالعدول في استعمال صيغة الفعل الماضي دالة على إفادته الاستقبال، واستلزم هذا أن يكون الحدث المفهوم هو خبر هذا الفعل، ولو اختصت(كان) بالدلالة على الماضي للزم انتفاء خبره فيما عدا الماضي. وهذا ممتنع من خلال قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ النساء: ٩٦. إذ أنَّ مغفرته- ﷻ- أمر

(1) شرح الرضي على الكافية، رضي الدين الاستراباذي، 4: 189.

(2) تفسير التحرير والتنوير، 20: 244.

(3) معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم الزجاج، 3: 43.

(4) تفسير القرآن الحكيم(تفسير المنار)، محمد رشيد رضا 2: 223.

(5) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين النيسابوري 1: 68.

أزلي لا يصح أن يتوقف على استمراره في المعنى بقرينة قوله : ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ البقرة: ٢١٨. فهي غير مقيدة بزمن بل هي حاصلة في كلِّ وقت وحين.[1].

جاء في الحديث عن دلالة كان (أنَّ النبي– ﷺ– علَّم عليًا دعوة يدعو بها عند كلِّ ما أهمَّه، فكان علي يعلمها ولده، يا كائنًا قبل كلّ شيء، و يا مكون كلِّ شيء، افعل بي كذا وكذا)[2].

وعن معنى(وكان الله) في القرآن الكريم[3] أنَّها « تأتي في القرآن لخمسة معان: للحال...، وللماضي المنقطع...، وللاستقبال...، وللدوام...، وبمعنى صار »[4].

فمن النصوص يتضح أنَّ دلالة الفعل(كان) في القرآن الكريم على المضي المفيد للحال والاستقبال؛ لأنَّ الثبوت الذي يدل عليه المضي يستلزم الاستمرار في الأزمنة المقبلة بعده.

ومن لطائف(كان) في دلالته على أسماء وصفات الله – ﷻ– أنَّها تأتي بصيغة المضي، والثبوت، والاستمرار، أمَّا المضي فدلالته أزلية لتلك الأسماء

(1) ينظر: تفسير التحرير والتنوير 7: 239.

(2) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين الشهير بالمتقي الهندي، تح: بكري حياتي. رقم الحديث 4998.

(3) وردت أربعون مرة: في النساء إحدى وعشرون، والكهف مرة واحدة، والفرقان مرة واحدة، والأحزاب عشر مرات، والفتح سبع مرات.

(4) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، زكريا الأنصاري تح: محمد علي الصابوني :44.

والصفات، وأمَّا الثبوت والاستمرار فيمنعان الانقطاع، أو التغير العارض للأحداث. والله أعلم.

اللطيفة الثانية: التعبير بالماضي لإفادة الاستمرار.

لا شك أنَّ النفس تتشوف إلى خبر المستقبل، وما يتضمن من أمور غيبية، كبر عليها التكهن بها، حتى عظمت فيها الأسرار واللطائف.

والأصل في الإخبار عن الأحداث المستقبلية أن يخبر عنها بصيغة الاستقبال التي تؤدَّى بالفعل المضارع، وتفيد وقتئذٍ احتمال الوقوع لا حتميته، غير أنَّ القرآن الكريم أخبر عن المستقبل بالماضي باعتباره إخبارًا عن أمر واقع لا محالة؛ لأنَّه صادر عن الله–ﷻ– الذي لا يتخلف خبره.

وللتعبير بالفعل الماضي لإفادة صيغة الاستمرار، أثره المترتب على المقام في بيان دلالة صيغة الفعل في سياق الجملة القرآنية، إذ يساعد المقام على توجيه دلالة الصيغة في إعادة تحقيق وقوع في مقامات، مثل: المدح، والذم، فهي مقامات استلزمت صيغة الماضي معنى الاستمرار الذي في أصل الوضع للمضارع. وهذا النوع من التعبير يغلب أن يستعمل في الجُمَل التي تأتي في صلة الموصول، كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ البقرة: ٤.

فوصف المؤمنين في الآية الكريمة أنَّهم يؤمنون بما أنزل الله– ﷻ– على رسوله الكريم – ﷺ – وهو القرآن، تعبيرًا بالمجموع كله، وبصيغة الماضي، وهذا ظاهر في قوله (أنزل)، والمعلوم أن ما يقع في المستقبل يعبر عنه بصيغة(سينزل)، فيقتضي الظاهر أن يكون الإخبار عنه بصيغة المضارع(ينزل)، قال الزمخشري عن هذا الاستعمال:« فإن قلت: قوله بما أنزل إليك، إن

عني به القرآن بأسره، والشريعة عن آخرها، فلم يكن ذلك منزلاً وقت إيمانهم، فكيف قيل أنزل بلفظ المضي؟ وإن أريد المقدار الذي سبق إنزاله وقت إيمانهم فهو إيمان ببعض المنزل، واشتمال الإيمان على الجميع سالفه ومترقبه واجب. قلت: المراد المنزَّل كله، وإنَّما عبَّر عنه بلفظ المضي وإنْ كان بعضه مترقبًا؛ تغليبًا للموجود على مالم يوجد، كما يغلب المتكلم على المخاطب، والمخاطب على الغائب»[1].

والظاهر من نص الزمخشري أمران أولهما: أنَّه يشبّه المنتظر في القرآن من الذي نزل منه، وهو تشبيّه المستقبل بالماضي في تحقق الوقوع؛ وذلك لجعل المترقب من النزول بمنزلة المتحقق نزوله من باب الاستعارة التبعية؛ لأنَّها في الفعل، وهي تشبيّه غير الموجود في تحقق وجوده بما هو كائن وموجود.

وثانيهما: حمل صيغة ولفظ (بما أنزل إليك) على جميع القرآن، غير أنَّ النازل منه وقتئذٍ بعضه؛ لأنَّ المقام مقام مدح للمؤمنين المتقين؛ فلا يكتمل الإيمان، ولا تكون التقوى إلاَّ بجميعه؛ ما هو ماضٍ في النزول، والمقترب فيه.

ومن لطيفة القول بالفعل الماضي في الآية **الاحتراز** عن الايهام بغير المراد، ففي الآية الفعل المضارع لا يؤدي المعنى بل سيوهم أنَّ الإيمان سينزل مستقبلًا، فلو قيل بما ينزل بم يشمل الفعل في الزمن الماضي لفسد المعنى، ومن هنا تطلب العدول إلى غير الظاهر.

ومن لطيفة استعمال الفعل الماضي في الآية بدلاً من المضارع الاحتراز، لكون المضارع لا يؤدي الغرض المطلوب بل يوهم أن إيمانهم سيكون بما سينزل من الآيات، وهذا المقام والسياق يستوجب عدول الفعل وانزياح لفظه

(1) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل1: 42.

من المضارع إلى الماضي حتى وإن كان التركيب يقتضيه. قال تعالى: ﴿ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴾ النساء: ٢٨ . إذ لا يجوز حمل الفعل (خُلِقَ) على أنه حدثٌ منقضٍ؛ إذ لو كان المراد بالفعل في الزمن الماضي لكان المعنى موقوفًا عند الإنسان المخلوق قبل نزول الآية، وهذا مصانٌ عن الذكر الحكيم، وكلام رب العالمين، ولعل اختيار الفعل الماضي في التعبير لما فيه من الاحتراز عمَّا يُفهم منه، إذ لو كان التعبير بالمضارع الذي يفيد الاستقبال؛ لكون زمن المضارع يحتاج إلى زمنٍ، وهذا لا يتناسب وقدرته ـ ﷻ ـ على الخلق لما في صيغة المضارع من التراخي وامتداد الزمن، كما التعريف في لفظ الإنسان للجنس. فيكون الماضي مستعملًا في دلالة الماضي، والحال والاستقبال على جهة السرعة والكمال؛ فيكسب التعبير بالفعل الماضي العظمة للخالق، والهوان للمخلوق.

ومن لطائف الفعل الماضي في دلالته على الاستمرار عدم الانقطاع الطارئ، فكأنَّ خلو الفعل من الدلالة أمر يستلزم الدلالة على الضد، كما في قوله تعالى: « ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ الحديد: ١. قال ابن عاشور في هذا المقام:« وصيغ فعل التسبيح بصيغة الماضي للدلالة على أنَّ تنزيهه تعالى أَمْرٌ مقرر. أَمَرَ الله به عباده من قبل وألهمه الناس، وأودع دلائله في أحوال ما لا اختيار له».[1] فأمر التسبيح التبستْ به النفوس، واستمر بأمر الله – ﷻ–.

واستعمل القرآن الفعل الماضي في دلالته على الاستمرار عند عرضه قضية الإيمان بمعونة المقام، والسياق في التعبير بصلة الموصول، قال تعالى:

(1) تفسير التحرير والتنوير 27: 357.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٨٢ .

إذ ليس المقصود بالذين آمنوا في الماضي دون غيرهم من المتأخرين بإيمانهم في الأزمنة الأخرى، بل المقصود كلّ مَن دخل في الإيمان، واتصف به، واستمر عليه دون نكوص، ويؤكد هذا القول، الوصف المتحقق المستلزم أن يكون صاحبه مستمرًا فيه؛ لأنَّ من يحدث الإيمان، ثم يحدث الكفر بعد إيمانه، لا يجوز وصفه بالإيمان، وحين استعمل القرآن الفعل الذي دلَّ على الانقطاع فإن صيغته اقترنت بلفظه فيما يدل على هذا الانقطاع، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴾ النساء: ١٣٧

فالفعل الماضي الدال على إحداث الإيمان اقترن بما يدل على انقطاع هذا الإيمان، ولذا فإن الآية الكريمة اختتمت صفاتهم بأنهم ازدادوا في كفرهم بعد التقلب بين الإيمان والكفر، فكان آخر أمرهم كفرًا.

فبيان النص– والله أعلم– أن دلالة الصيغة، ومادة الفعل، وأثر المقام المستوجب لهذا السياق، تظافرت مع بعضها بعضًا لأمرين:

الأول: انزياح معنى الفعل الماضي عن دلالته على المضي لإفادة الاستمرار.

والثاني: التعبير بما يفيد الدلالة على الكناية، أو المجاز؛ فالكناية في دلالة اللفظ على لازم معناه؛ لأنَّ صيغة الماضي الواقعة في هذا التركيب وإنْ دلتْ على المضي في حقيقتها استلزم من مُضِيها الاستمرار في معنى الفعل، فهي كناية، والمجاز من دلالة هذا التركيب على العلاقة الجزئية من خلال التعبير عن الكلِّ بالجزء، فهي مجاز مرسل علاقته الجزئية؛ لأنَّ الفعل الماضي

المعبَّر به عن الأزمنة الثلاثة المستمرة جزء من تلك الأزمنة. والله- تعالى- أعلم.

ومن لطائف الفعل الماضي ألاَّ يدل الفعل بمادته وصياغته على **الاستمرار** من ذاته بل بما في السياق من دلالة عليه، كما في قوله تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ ﴾ المائدة: ٧٨ -٧٩.

قال أبو السعود في تفسير الآية إنَّها:« استئناف مفيد بعبارته الاستمرار وعدم التناهي عن المنكر، ولا يمكن استمراره إلاَّ بتعاطي المنكرات... وقيل التناهي بمعني الانتهاء يقال: تناهى عن الأمر، وانتهى عنه، إذا امتنع عنه وتركه. فالجملة حينئذٍ مُفسِّرة لما قبلها من المعصية والاعتداء، ومقيدة لاستمرارها صريحًا، وعلى الأول مفيدة لاستمرار انتفاء النهي عن المنكر، بأن لا يوجد بينهم من يتولاه في وقت من الأوقات، ومن ضرورته استمرار فعل المنكر»[1].

والآية الثانية تعليل، وبيان للعلة في الآية الأولى، والمعنى: أنَّهم لا يتناهون عن المنكر الذي يفعلونه.

ودلالة فعل النهي(يتناهون) على أنَّ المنكر الواجب تركه مستقبل بالنسبة للتناهي؛ لأنَّ النهي لا يتم منه التصور[2]، وإنَّما هو نهي عن الشيء قبل

(1) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم 3: 69. وينظر : تفسير التحرير والتنوير 6: 293.

(2) ينظر التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تح: إبراهيم الأبياري: 83.

حدوثه، فدلَّ هذا على أنَّ عدم تناهيهم عن فعل مستقبل، أي: لا يتناهون عن منكر يفعلونه.

ويقتضي الظاهر أن يعبَّر عنه بالمضارع؛ لأنَّ الفعل المنكر من الذين كفروا من بني إسرائيل يتكرر مرة بعد مرة، دون أن يَنْهَ بعضهم بعضًا عن حدوثه، فيكون في عدم تناهيهم الإصرار على المنكر وتكراره في الفعل، وهذا المعنى بدلالة الاستمرار مستفاد من السياق العام للآيتين الكريمتين.

اللطيفة الثالثة: التعبير بالماضي لما يتحقق في المستقبل القريب.

استعمل القرآن الكريم الفعل الماضي في دلالته على ما يتحقق في المستقبل القريب في مقام البشارة للأنبياء ـ عليهم السلام ـ وللمؤمنين بكل صورها من حيث قرب النصر، أو استجابة الدعوة بالعذاب والهلاك، وذلك في الدنيا قبل الآخرة .

وهذه البشارات جاءت بصيغ الماضي وإن كانت مستعملةً في المستقبل؛ لإفادة معنى التحقق الذي لا شك فيه؛ لأنَّها من خبر الله العليم الخبير.

قال ـ تعالى ـ في شأن نبي الله نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه : ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾ نوح: ٢٥. ففي الآية بشارةٌ، ونصرٌ لنوحٍ ـ عليه السلام ـ قال ابن عاشور في تفسيره للآية : « وتكون صيغة المضي في قوله : أغرقوا مستعملة في تحقق الوعد لنوح بإغراقهم، وكذلك قوله : فأدخلوا نارًا، وقدَّم مما خطيئاتهم على عامله لإفادة النصر »[1].

(1) تفسير التحرير والتنوير 29: 212.

أما تعقيب الإغراق بإدخال النار بواسطة (الفاء) ففيه دلالةٌ على أن ما بينهما وهو عذاب القبر غير مُقاسٍ بعذاب الآخرة[1].

ومن البشارات ما جاءت لموسى وأخيه ـ عليهما السلام ـ بعد الدعاء على فرعون وقومه بسلب النعمة منهم، وعذابهم في الدنيا قبل الآخرة، قال تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ طه: ٣٦ ، وقال أيضًا : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يونس: ٨٩.

فالفعلان الماضيان (أُوتِيتَ، أُجِيبَت) مستعملان في معنى تحقق الوقوع في المستقبل، وأُوكدا بـ(قد) لإتمام وتقوية معنى البشارة، فانبنى عليها الأمر بالاستقامة.

وتظهر المعجزة على لسان عيسى ـ عليه السلام ـ قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ مريم: ٣٠.

فهذا الإخبار منه لقومه أنه عبد الله، وقد أوتي الكتاب، وجعله نبيًّا، إخبار بصيغ المضي من عيسى ـ عليه السلام ـ في موضع المضارع؛ لتحققه في الوقوع، وهذا فيه ما فيه من ردعٍ للكافرين به.

ومع نبي الله هود ـ عليه السلام ـ جاءت البشارة أيضًا، وتحقق العذاب في الذين كفروا من قومه، قال تعالى على لسانه ـ عليه السلام ـ : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾الأعراف: ٧١.

فصيغة الفعل (وقع) المسبوق بـ (قد) تدل على أنَّ وقوع الغضب عليهم لا شك فيه، والغضب هنا مجازٌ من العذاب علاقته السببية؛ لأنَّه سببٌ

(1) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي 5: 250.

في العذاب و لولا السبب لما وُجد المسبّب. وليس المراد من قول هود ـ عليه السلام ـ الإخبار بغرض التقريع والتخويف؛ لأنَّه عَلِمَ حلول العذاب واستحقاقه فلا مجال للرجوع والتوبة والهداية حتى لا يكون.

والبِشارة واضحةٌ للرسول الكريم محمد ـ ﷺ ـ بفتح مكة كما في قوله تعالى :﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ الفتح: ١. وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ الأحزاب: ٢٧. قال البيضاوي عن فتح مكة : « وعدُ فتح مكة، والتعبير عنه بالماضي لتحققه»[1]. وقال أبو السعود : « والتعبير عنه بصيغة الماضي على سُنن سائر الأخبار الربانية للإيذان بتحققه لا محالة تأكيدًا للتبشير »[2].

فالفعلان الماضيان في الآيتين (فتحنا، أورثكم) جاءا في مقام المضارع؛ لأنَّهما مستقبَلان بالنسبة لزمن الحكم، وذلك لدلالتهما على تحقق الوقوع؛ لأنَّ المخبِر بهما هو الله المدبر الأمر، ففيهما ما فيهما من البشرى للرسول ـ ﷺ ـ.

ومن صور البِشارة للمؤمنين ما يقتضي استعمال الماضي في التعبير عن المستقبل لإفادة تحقق الوقوع، وذلك بحسب مقتضى المقام، فصياغة الأمر من الله – ﷻ – للمؤمنين بعد النداء إفادة **للاهتمام**، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ الحج: ٧٧. وجاء خبره عن المؤمنين في قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ المؤمنون: ١.

(1) أنوار التنزيل وأسرار التأويل 5: 126.

(2) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم 8: 103، ينظر : تفسير التحرير والتنوير 26: 144.

وقال ابن عاشور في تفسيره عن آية الحج أنهم:« كانوا لا يعرفون تحقيق أنهم أتوا بما أرضى ربّهم ويخافون أن يكونوا فرَّطوا في أسبابه، وما علَّق عليه وعده إيَّاهم، بله أن يعرفوا اقتراب ذلك فلما أخبروا بأنَّ ما ترجّوه قد حصل حقق لهم بحرف التحقيق وبفعل المضي المستعمل في معنى التحقيق، فالإتيان بحرف التحقيق لتنزيل ترقبهم إيَّاه لفرط الرغبة والانتظار منزلة الشك في حصوله »[1].

فالآية مُؤكَّدَة بحرف التحقيق(قد) مع الفعل الماضي الدال على التحقق أيضًا، و في إطار السياق العام لهذا التعبير ما يدل على البِشارة من الله – ﷻ – لعباده المؤمنين، وفيه ما فيه من تعريض للكافرين؛ لإعراضهم عن الإيمان، قال ابن عاشور في هذا الصدد:« وأكد هذا الخبر بحرف(قد) الذي إذا دخل على الفعل الماضي أفاد التحقيق، فحرف (قد) في الجملة الفعلية يفيد مفاد (إنَّ، واللام)»[2].

اللطيفة الرابعة: التعبير بالماضي عن أحوال يوم القيامة.

الإخبار عن المستقبل بالماضي لم يكن معهودًا عند العرب، وإن وجد عند شعرائهم وأدبائهم نحو: أعطاك ربك، وعافاك ربك، وآتاك ما تريد[3]. فهو أسلوب طلبي ليس فيه قوة وعظمة الأسلوب الخبري الذي في القرآن الكريم.

ويكاد أن يتفرد القرآن بهذه الخصوصية– التعبير بالماضي عن المستقبل– لاسيما عن القيامة، وأحوالها، إلى أن ينتهي فيه أهل الجنة إلى الجنة بلا موت، وأهل النار إلى النار بلا موت.

---

(1) تفسير التحرير والتنوير 18: 8.

(2) المصدر نفسه 18: 08.

(3) ينظر: خزانة الأدب ولب اباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، تح: محمد نبيل طريفي، وإميل بديع يعقوب 11: 79.

ولقد بشَّر القرآن المؤمنين في هذا اليوم بجنة نعيمٍ، وأنذر الكافرين بنار جحيم في مدار التعبير عن المستقبل بالماضي تحققًا للوقوع، فأصبح محتمَل الوقوع واقعًا، والبعيد قريبًا، والمتخيَّل حقيقةً، والمستحيل ممكنًا.

وإخبار القرآن عن المستقبل بالماضي من أقوى أساليب التوكيد، ولا يصدر هذا التوكيد إلاَّ عن صاحب القدرة الذي لا يتطرق إلى خبره الاحتمال في الوقوع. قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٩ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٧٠ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۚ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٥ الزمر:67-75.

أخبرت الآيات عن أحداث يوم القيامة وأحواله بصيغة الفعل الماضي (ونفخ، فصعق، ثم نفخ، وأشرقت، ووضع، وجيء، وقضي، ووفيت، وسيق، وقالوا، وقضي)، فكانت أحداثًا دلالتها محققة الوقوع، لا ريب في ذلك؛ لأنَّ الله– ﷻ – هو المُخبر بها. قال الألوسي في تفسيره للآية: « التعبير بالماضي

لتحقق الوقوع، وبني الفعل للمفعول لعدم تعلق الغرض بالفاعل بل الغرض إفادة هذا الفعل من أي فاعل كان، فكأنَّه قيل: ووقع النفخ في الصور، فصعق مَنْ في السموات، ومَنْ في الأرض، أي ماتوا بسبب ذلك»[1].

والمستفاد من نص الألوسي أمران، الأول: أنَّ صرف اهتمام السامع إلى الفعل في ذاته فيه من الأهمية بحيث لو ذكر الفاعل لأشغل جزءًا من اهتمامه.

الثاني: أنَّ بناءها للمفعول يجعل الأمر بيد الله- ﷻ- وحده وبإرادته، وفي هذا قصر إلى أنَّ القيامة وأحوالها، إنَّما هي من أمر الله وحده، لا شريك له فيها، قال تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ الفاتحة: ٤ . فتبقى النفوس متعلقة بالخالق العظيم.

وإنَّ ما جاء في الإخبار عن أمر النفخ وما بعده بصيغة الفعل الماضي دون المضارع لتحقق وقوع الفعل، وأنَّ هذه الأفعال لتأتي في معرض الوعيد والتهديد، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٢٤﴾ ق:19- 24.

قال أبو السعود عن سكرة الموت:« صيغة الماضي إيذانًا بتحقيقها وغاية اقترابها»[2]، ثم البعث بعد النفخة الثانية، وفيه ما فيه من تهديد ووعيد، وتسمية اليوم الآخر بيوم الوعيد يفيد أن المخاطب هنا الكافر لا المؤمن. وصيغة المضي المساقة في الآيات لسياق مؤكد أنَّها في مقام التهديد والوعيد.

(1) روح المعاني 12: 28.

(2) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم 8: 129.

والآيات لم تصوّر مشهد القيامة بأكمله بل اكتمل في آيات أخرى، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ الكهف: 47-49.

فقد صوَّرت الآيات المشهد بالأفعال الماضية(حشرناهم، وعرضوا، ووضع الكتاب، ووجدوا، فدعوهم، وجعلنا، ورأى، فظنوا).

قال الزمخشري في تفسيره للآية:« فإن قلت لِمَ جيء حشرناهم ماضيًا بعد نسير وترى؟، قلت: للدلالة على أنَّ حشرهم قبل ذلك وعدًا ووقتًا لإنجاز ما وعدتم على ألسنة الأنبياء من البعث والنشور»[1].

من قراءة نص الزمخشري يمكن القول إنَّ عطف الفعل الماضي(حشرناهم) على المضارع (ترى) يشركه معه في مطلق الاستقبال، فالواو عاطفة مفيدة للمشاركة بين الماضي والمضارع في الزمن المستقبل، فلا خلاف هنا بينهما إلاَّ من حيث الصورة، ودلالة المضي هنا المراد بها معنى التحقق لقرينة أنَّ الحشر لم يقع بعد ، ولمَّا أن وقوع الحشر ماضيًا بالنسبة لصيغة الفعل المضارع(ترى) الذي عطف عليه، ولأنّ الواقع لا يفيد معنى الحشر لزم أن تكون دلالته في المستقبل، قال الشهاب[2]« الجمل المتعاطفة

(1) الكشاف: 2: 726.

(2) الشِّهاب الخفاجي(977-1069هـ=1569-1659)، أحمد بن محمد بن عمر، شهاب الدين الخفاجي المصري...نسبته إلى قبيلة خفاجة، ولد ونشأ بمصر، من أشهر كتبه

يجوز فيها التوافق والتخالف في الزمان، فإذا كان الواقع كذلك فلا خفاء فيه، وإن لم يكن فلا بدَّ للعدول من وجه»[1].

ومن لطائف استعمال صيغة (حشرناهم) بالفعل الماضي إفادته تهوين أمر حشر العباد عند الله ـ ﷻ ـ مع كثرتهم، وأنَّه على عِظَم ذلك الفعل قادرٌ ومقتدرٌ في زمنٍ سريعٍ، وهذا متناغمٌ مع صيغة المضي المفيدة لتحقق الوقوع.

و صوَّر القرآن في سورة الكهف طرفًا من أحداث يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ الكهف: 52-53.

فهذا المشهد ترتسم فيه مناداة الله – ﷻ– المشركين يوم القيامة أن يدعوا شركاءهم الذين عبدوهم من دون الله في الحياة الدنيا بصيغة الفعل الماضي(نادوا شركائي)، بمزيد من الغضب، والسخرية، والتوبيخ؛ لأنَّهم جعلوا شركاء لمن لا شريك له.

وفي قوله(فدعوهم) بدلاً من (فنادوهم) لما في الدعاء من الضراعة والتوسل ليست في النداء، وجملة(فدعوهم) معطوفة على جملة (يقول)[2]، وفيه

(شفاء العليل فيما في كلام العرب من الدخيل)، و(عناية القاضي وكفاية الراضي) حاشية على تفسير البيضاوي. الأعلام للزركلي، 1: 238.

(1) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ، المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، شهاب الدين أحمد بن محمد الحنفي 6: 106.

(2) الجدول في إعراب القرآن الكريم، محمد عبد الرحيم صافي، 20: 283.

ما فيه من التعلق بالإفادة لتكرار مرات الدعاء طلبًا للنجاة دون جدوى، فلم يغنوا عنهم من الله شيئًا[1].

وَحَقُّ تكرار الدعاء أن يعبَّر عنه بصيغة الفعل المضارع من حيث كونه مستقبلاً، ولما فيه من التكرار، غير أنَّ القرآن عدل إلى التعبير بالماضي؛ لإفادة أنَّ كل طاقات الدعاء استنفذت عند دعاء الشركاء لآلهتهم الباطلة، فكان عجزهم ويأسهم، فدعاؤهم للشركاء متحقق بلا إجابة، قال أبو السعود:« وفي ذلك بيان لكمال اعتنائهم بدعائهم على طريق الشفاعة»[2].

وأما التعبير بالماضي– في مقام المضارع– ففيه معنى الاستقبال لوقوعه في مدار ظرف المستقبل، والقرينة الفعل المضارع(يقول)، كما أفاد نفي الاستجابة كلِّ صور التشنيع (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم). ولذا كانت لصيغة الفعل الماضي في التعبير الفضل في التحقيق، وسرعة إيقاع الفعل.

وفي سورة القصص شيء من التفصيل عن يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ القصص: 62- 63.

قال ابن عاشور:« الاستفهام بكلمة أين، ظاهره استفهام عن المكان الذي يوجد فيه الشركاء، ولكنه مستعمل كناية عن انتفاء وجود الشركاء المزعومين يومئذٍ، فالاستفهام مستعمل في الانتفاء»[3].

(1) ينظر: تفسير القرطبي 11: 02.

(2) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم 5: 229.

(3) تفسير التحرير والتنوير 20: 156.

والمستفاد من قول ابن عاشور أنَّ النفي مسلط على شركاء حقيقيين، أمَّا الشركاء المزعمون فأثبتتهم الآية؛ لأنَّ القول حقٌّ عليهم، وهم المتبرئون من المشركين، وتنزيلاً للموجود منزلة المعدم لعدم نفعه، قد يكون نفي وجود الشركاء نفيًا لمنفعتهم وشفاعتهم، على قياس تنزيل الكافر منزلة الميت، أو من ليس له قلب أو سمع لعدم الانتفاع بهما.

وجواب الشركاء المزعومين[1] ليس استجابة للدعاة الذين يدعونهم، بل هو تصدّ للجواب عن ما لم يسألوا عنه، فالله – ﷻ– يسأل المشركين عن شركائه الذين يزعمونهم، فيكون الجواب من الشركاء غير المسؤولين. وفي هذا اعتراف بجريمة المشركين، ويكرر السؤال مرة أخرى للمشركين أن يدعوا الشركاء الذين عبدوهم من دون الله، فلا استجابة لإحالة العذاب بينهم.

والمشركون وشركاؤهم موجودون وقت الحشر، فهم موقفون في مكان واحد، لاشتراكهم في جريمة واحدة كون أحدهم عابد، والثاني معبود، فيفرق بينهم. قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ يونس: ٢٨ .

وقوله: فَـ(زَيَّلْنَا) بصيغة المضي لإفادة التحقق، و(الفاء) لإفادة أن التزييل مباشر للحشر، قال أبو السعود:« الفاء للدلالة على وقوع التزييل ومباديه عقيب الخطاب من غير مهلة إيذانًا بكمال رخاوة ما بين الفريقين من العلاقة والوصلة»[2] والرخاوة التي بينهم دلالة تباغض ، وهذا مقاد إلى التبرؤ والتنكر.

(1) وهؤلاء هم أئمة أهل الشرك من أهل مكة، مثل: أبي جهل، وأمية بن خلف، وسدنة أصنامهم. ينظر: تفسير التحرير والتنوير 20: 157.

(2) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم 4: 139–140.

أمَّا في آية القصص ﴿ وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ القصص: ٧٥. فتظهر دعوة الأنبياء على أممهم التي عبَّر عنها بالفعل (نَزَعْنَا)، والنزعُ: « هو جذب شيءٍ من بين ما هو مختلَطٌ به، واستُعير هنا لإخراج بعضٍ من جماعةٍ »[1].

وتضمنت الآية أفعالاً ماضيةً (نَزَعْنَا، فَقُلْنَا، فَعَلِمُوا، وَضَلَّ عنهم)، وعُدِلَ فيها من المضارع إلى الماضي لإفادة التحقق والوقوع. وفي لفظ (فَعَلِمُوا) دلالةً على تخلّي الشركاء عنهم، وهذا مُستفادٌ من تكرار الدعاء دون جدوى، والتعبير عن حال قولهم بقوله : (إِنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ) يُثبت أمر الألوهية الحقَّة، والتعبير بـ(ضَلَّ عنهم) بمعنى (غاب)، فالضلال مُستعارٌ للغيبة[2]. فيكون غياب آلهتهم عنهم سابقاً لدعائهم إيَّاهم.

وأمَّا قوله ـ تعالى ـ :﴿ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ٤٧ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٤٨ ﴾ فصلت: 47 ـ 48 .

فيتضمن إقرار المشركين بالتبرئة من الشركاء وهذا ثابتٌ بعدم مشاهدتهم إيَّاهم، وغيابهم عنهم، وهذا يُفهم من الآية (وَضَلَّ عنهم)، والله أعلم.

واستعمال الفعل الماضي (آذَنَّاكَ) بدل الفعل المضارع (نؤذنك) وهو بمعنى الإخبار والإعلام. هو استعمال المعنى الدَّالِ على الحال لبيان تحقق الإقرار، وهذا فيه رجاءٌ وطمعٌ في التخلص من هول ما يرونه من عذابٍ، ولكن

(1) تفسير التحرير والتنوير 20: 172.

(2) تُنظر: حاشية الشهاب 7: 85.

دون جدوى، لقوله ـ تعالى ـ : (ظنوا ما لهم من محيصٍ). والتعبير بالظن لإفادة اليقين بدلالة السياق والقرائن المقيّدة لتحقق الوقوع. والله أعلم.

وفي سورة الأعراف بيان لحال المؤمنين، والنعيم المقيم الذي حَلُوا فيه، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ الأعراف: 42- 43.

فالوصف الأول للمؤمنين هو نزع الغلّ من صدورهم في الحياة الدنيا، الذي عبَّر عنه بالفعل الماضي(وَنَزَعْنَا)، لإفادة تحققه، وهو مظهر من مظاهر الخير يفتقره أهل النار. وصيغة لفظه بالمضي إفادة للسرعة، وشدة الاستئصال والتنقية.

وفي حوار أهل الجنة ما يدل على الطمأنينة، والسعادة لحلولهم الجنة، فلا بؤس، ولا شقاء، ولا مكابدة. وخلاف هذا أهل النار فهم في تباغض وتلاعن، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾الأعراف: ٣٨.

وقال ابن عاشور في تفسير جملة (قالوا الحمد لله):« التعبير بالماضي يراد به المستقبل...وهذا القول يحتمل أن يكونوا يقولونه في خاصتهم ونفوسهم، على معنى التقرب إلى الله بحمده، ويحتمل أن يكونوا يقولونه بينهم في مجامعهم»[1] .

(1) تفسير التحرير والتنوير 8: 132.

أمَّا الفعل الماضي (وَنُوْدُوا) فدلالته على قَبول الله لهم، والرضى عنهم، وبني فعله للمفعول لظهور المقصود[1]، غير أنَّ الألوسي يرجّح أن يكون النداء من الملائكة؛ لأنَّ الآثار تؤيده[2].

ومن صور الوصف ليوم القيامة نداء أصحاب الجنة لأصحاب النار، قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ﴾ الأعراف: ٤٤ .

فأصحاب الجنة فَرِحون مبتهجون بالنعيم الذي وجدوه، قال أبو حيان:« وعبَّر بالماضي عن المستقبل لتحقيق وقوعه، هذا النداء تقريع وتوبيخ وتوقيف على مآل الفريقين، وزيادة في كرب أهل النار بأن شُرِفُوا عليهم»[3] .

أمَّا نداء أصحاب النار لأصحاب الجنة، فقال تعالى عنه: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١ ﴾ الأعراف: 50-51.

ومن صور المناداة مناداة أصحاب الأعراف، قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨

(1) ينظر: المصدر نفسه8: 134.

(2) ينظر: روح المعاني 8: 121.

(3) البحر المحيط في التفسير 5: 55.

أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ الأعراف48- 49.

وفي الآيات السابقة أسهمت قوة صيغة التعبير بالفعل الماضي في جعل التصور كاملاً لما في المستقبل، وكأنَّه ماضٍ وقع وَتُذْكَرُ أحداثه، فلا نملك إلاَّ الإقرار والتصديق؛ لأنَّه إخبار من الخالق العظيم.

الخاتمة :

وتضم أهم النتائج ، وهي كالآتي :

1. عبَّر القرآن الكريم بالفعل الماضي للدلالة على الحال والاستقبال تحققًا لوقوع الخبر؛ لأن المُخبِر هو الله ـ ﷻ ـ الذي لا يتخلف خبره.
2. أنَّ من دلالة الفعل الماضي في القرآن الكريم على الحال اقترانه بلفظ (الآنَ) في سياق حال النُّطق به مع الفعل.
3. أنَّ الأمثال المستعملة بلفظ (ضَرَبَ) في القرآن الكريم دلالة الحال فيها على المضي؛ لأنَّ خبرها مفيدٌ لمعنى إنشائها وقت الإخبار بها.
4. أنَّ لـ (كان الناقصة) في القرآن الكريم دلالة على المُضي المفيد للحال والاستقبال؛ لأن الثبوت الذي تدل عليه يستلزم الاستمرار في الأزمنة المقبلة بعده، ودلالة المضي فيها لأزليَّة أسمائه وصفاته ـ تعالى ـ والثبوت والاستمرار بامتناع الانقطاع أو التغير العارض للأحداث. والله أعلم.
5. استعمل القرآن الكريم الفعل الماضي في دلالته على الاستمرار عند عرضه قضية الإيمان وفق صيغة الفعل، وأثر المقام المستوجبِ للتعبير وفق سياق صلة الموصول.
6. أنَّ استعمال القرآن للفعل الماضي في دلالته على ما يتحقق في المستقبل القريب كان في مقام البِشارة للأنبياء وللمؤمنين لتحقق الوقوع.
7. أنَّ استعمال الفعل الماضي في دلالته على أحوال يوم القيامة بِشارةٌ للمؤمنين، ووعيدٌ للكافرين تحققًا لوقوعه. ولما فيه من تهوين أمره على الله ـ ﷻ ـ وشدته على العباد.

فِهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم (برواية حفص عن عاصم).

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود(ت:982هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت.
- الأصول في النحو، أبو بكر المعروف بابن السراج(ت:316هـ)، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة لبنان.
- الأعلام،خيرالدين الزركلي(ت:1396هـ)، دار العلم للملايين،ط/15/2002م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت ط/1/1418هـ.
- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، (ت:745هـ)، تح: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر بيروت، 1420هـ.
- البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي، الناشر: دار القلم دمشق، الدار الشامية بيروت، ط/1/1416هـ - 1996م.
- البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، تمام حسان، عالم الكتب - القاهرة ط/1/1413هـ - 1993م.
- التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تح: حسن هنداوي، ط/1/1418هـ، دار القلم دمشق.
- التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، ط/1/1405هـ.

- تفسير التحرير والتنوير(تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، محمد الطاهر ابن عاشور التونسي(ت:1393 هـ) الناشر: الدار التونسية للنشر- تونس 1984م.
- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا(ت:1354هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي(ت:671هـ)، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية القاهرة، ط/2/1384هـ - 1964م.
- الجدول في إعراب القرآن الكريم، محمود عبد الرحيم صافي (ت:1376هـ)، دار الرشيد، دمشق، مؤسسة الإيمان، بيروت، ط/4/1418هـ.
- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي المسامات(عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي)، شهاب الدين الحنفي، دار صادر بيروت.
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبدالقادر عمر البغدادي، تح: محمد نبيل طريفي وإميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية 1998م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي(ت:1270هـ)، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية بيروت، ط/1/1415هـ.
- شرح التسهيل، جمال الدين محمد بن مالك، تح: عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، ط/1/1410هـ، دار هجر، جيزة.
- شرح الرضي على الكافية، تأليف: رضي الدين الإستراباذي، تصحيح وتعليق: يوسف حسن عمر، جامعة قاريونس، 1398هـ - 1978م.

- علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط/2/ (د.ت).
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين النيسابوري(850هـ)، تح: الشيخ زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، ط/1/1416هـ.
- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، زكريا الأنصاري(ت:926هـ)، تح: محمد علي الصابوني، الناشر: دار القرآن الكريم بيروت ـ لبنان، ط/1/1403هـ ـ 1983م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري(ت:538هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي بيروت، ط/3/1407هـ.
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين الهندي(ت:975هـ)، تح: بكري حياتي، صفوة السقا، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط/5/1401هـ
- لسان العرب، ابن منظور(ت:711هـ)، دار صادر بيروت، ط/3/1414هـ.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، تح: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الناشر: دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ط/2/.
- المزْهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي(ت: 911هـ) تح: فؤاد علي منصور، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، ط/1/1418هـ ـ 1998م.
- معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج(ت:311هـ)، تح: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب بيروت، ط/1/1408هـ -

- معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي(ت:911هـ)، دار النشر: دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ـ ط/1/1408هـ ـ 1988م.
- مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر السكاكي(ت:626هـ)، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، الناشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط/2/1987م.
- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني،(ت:502هـ) تح: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية دمشق، ط/1/1412هـ.
- المفصل في صنعة الإعراب، الزمخشري(ت:538هـ)، تح: علي أبو ملحم، الناشر: مكتبة الهلال بيروت، ط/1/1993م .